

استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالجزائر إثر الغزو الاسباني لمملكته والجزائر تلبي 1543م

زيتوني حمزة إسحاق

طالب دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر السنة الرابعة

جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري

isak.barbarous@gmail.com

الملخص:

استنجد البلاط الفرنسي الملكي بالبحرية الجزائرية خلال القرن السادس عشر". لقد كانت البحرية الجزائرية المحور الرئيس والمرجل الذي جمع بين الجزائر وفرنسا، خاصة أن فرنسا خلال هذه المرحلة كانت تعاني الضياع والضمور من جراء طموح إمبراطور إسبانيا الذي يهدف إلى قضم المملكة الفرنسية من أوروبا، وجعلها قطعة إسبانية. لذلك ارتقت فرنسا في أحضان الخلافة العثمانية لإنقاذها من هذا القدر المحتم عليها من جراء ضعفها وهوانها، فأوكلت الأستانة مهام إنقاذ مملكة فرنسا للقوة الناشئة في الجزء الغربي من حوض المتوسط ألا وهي الجزائر التي أضحت قوية بحريتها.

الكلمات المفتاحية: الغزو الاسباني - النجدة الجزائرية - الاستنجد الفرنسي

Résumé

Durant le 16eme siècle la couronne française avait demandé l'aide de la flotte algérienne contre l'Espagne qui avait des volontés d'annexer la France à l'empire hispanique, La marine algérienne fut donc le marche- pied des relations Algéro_Françaises. L'aide fut demandée à la porte sublime qui avait confié le rôle de protection à la marine algérienne, cette puissance naissante à l'ouest de l'empire othoman.

مقدمة:

تطلّع ملوك فرنسا منذ القدم لبسط نفوذهم وسيطرتهم على ممالك أوربا، فتوارث ملوك فرنسا أبا عن جد هذه الأفكار، التي أضحت طموحا راسخا في ذهنياتهم. بتولي فرانسوا الأول⁽ⁱ⁾ عرش ملك فرنسا، رأى أن مملكته قد فقدت كل ما لها من هيمنه، وكرامة في الحرب التي كانت قد احتدمت بين فرنسا واسبانيا، وهي الحرب التي عرفت بحرب الستين سنة⁽ⁱⁱ⁾، فعقد العزم على إحياء أمجاد وكبرياء مملكته.

بدأ خطوته الأولى في تنفيذ هدفه الذي يصبو إليه، بادعائه وراثته عرش ميلان من جدته كسبب دبلوماسي. ثم زحف بجيشه على ميلان، وتمكّن من حصد الانتصار تلوى الآخر بمساعدة حلفائه البنادقة، ففي سبتمبر 1515م، تمكّن فرانسوا من بسط سيطرته على شمال شبه الجزيرة الإيطالية بعد معركة مارينون⁽ⁱⁱⁱ⁾ الشهيرة. وفي هذه الظروف حدث أن توفي الإمبراطور ماكسيميليان^(iv) (Maximilien)، وترك فراغا سياسيا كبيرا في القارة الأوروبية، ونظرا لأنّ الحكم الإمبراطوري لم يكن وراثيا من الناحية النظرية، فقد رشّح كل من: فرانسوا الأول ملك فرنسا نفسه، وهنري ملك إنكلترا^(v)، وشارل ملك اسبانيا^(vi)، للجلوس على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

سعى فرانسوا الأول للفوز بتاج الإمبراطورية، والهيمنة على كامل أوروبا، خاصة بعد أن مكّنه انتصاره في معركة مارينون من الاستحواذ على شمال القدم الايطالي، فغدا (فرانسوا الأول) من أكبر رجال عصره، كما كان شارل الخامس يصبو هو الآخر إلى تحقيق نفس الغاية^(vii).

اجتمع الأمراء النخبون في مدينة فرانك فورت، وطالت بينهم المداولات والمساومات إلى أن اتفقوا في يوم 5 جويلية 1519م، على انتخاب^(viii) ملك إسبانيا إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة^(ix) باسم شارل الخامس، وبذلك جمع شارل الخامس لنفسه ملك اسبانيا، والنمسا، ومملكة نابولي، وجمهورية جنوا، وفلورنسا، وجزيرتي مينورقا، وصقلية، وإقليم وهران في الجزائر^(x)، وأيضا بلدان أمريكا أو العالم الجديد^(xi). وبذلك تربّع شارل الخامس على عرش ينطوي تحت لوائه سبعة ملوك، وأمراء^(xii).

فكّر الإمبراطور الجديد في ربط أملاكه على حساب فرنسا، حيث أنّ الظروف الجغرافية تدعوه إلى ذلك، لأنّه في حالة إذا ما تفككت فرنسا، فانه يستطيع ربط أسبانيا من جهة الأراضي المنخفضة و فرانك كومتية من ناحية أخرى^(xiii)، وبالتالي أضحت هذه المساعي من أجل الهيمنة، تهدد في المقام الأول فرنسا^(xiv)، خاصة بعد أن أصبح الإمبراطور قادرا على غزوها، عبر الحدود الألمانية.

خشيت فرنسا من ضياع موقعها في شبه الجزيرة الإيطالية، وبتها من مقاطعة برجنديا التي كانت تقع ضمن حدودها.

لم يكن بد في ظل هذه الأوضاع المهزوزة من استئناف الصراع الذي احتدم في الفترة الممتدة ما بين 1520-1530م بين فرنسا واسبانيا بسبب ادّعاء كل من الملكين أحقيتهم في ميلان^(xv).

وبالفعل لقد شكّلت الائتلافية المعادية لفرنسا في ايطاليا، التي ضمتّ كل من البابا ليو العاشر^(xvi)، وشارل الخامس، ومملك انكلترا، في شهر نوفمبر من عام 1521م، تستهدف طرد الفرنسيين من إيطاليا، وتصفية نفوذها بها. لقد استطاعت هذه الائتلافية تحقيق غرضها بعد وقت قصير^(xvii)، ليزداد الوضع سوءا بالنسبة

لفرانسوا الأول عندما عقد شارل اتفاقا مع القائد العام للجيش الفرنسية (الدوق دي بربون) حتى يضمن مساعدته في الحصول على مقاطعة دوفين (Dauphin)، ومقاطعة بروفانس (Provence) ليضمن ربط ممتلكاته، بروجنديا واسبانيا بإمارة تدين له بالولاء^(xviii)، وبالفعل ساء وضع فرانسوا الأول حينما انظم قائد جيشه المرابط بايطاليا الدوق دي بربون بقوته إلى معسكر الإمبراطور عام 1522م، فهُزِمَ الجيش الفرنسي في عدت معارك، إلا أن معركة بافيا (Pavie) التي جرت أحداثها في 24 فيفري 1525م، كانت حاسمة كما كانت هذه المعركة، ضربة قاسية وجهت للمملكة الفرنسية في مقامها، ذلك أن فرانسوا الأول ملك فرنسا والذي يمثل كرامة شعبه وعزته وقع في أسر عدوه، فنقل سجيناً إلى مدريد^(xix)، مصفداً بالحديد. وهناك وقع رغم أنفه معاهدة مدريد المهينة^(xx).

في ظل هذه الظروف المزرية التي تمرّ بها فرنسا، اتخذت الملكة - والددة فرانسوا الأول والوصية على العرش الفرنسي - اتخذت قراراً^(xxi)، إما من قناعتها الشخصية، أو إيجاء من ابنها الملك، بأن تجنم فرنسا على ركبتيها أمام الباب العالي لتطلب عون ونصر الخلافة العثمانية ضد الإمبراطور شارل الخامس، خاصة بعد أن اتضح للملكة الأم، وتؤكد الملك الابن، بأن لا أمل لفرنسا في الصمود في وجه الإمبراطور وطموحاته، وأن فرنسا ستغدو عاجلاً أم آجلاً قطعة من المملكة الاسبانية.

في هذه الظروف ظهر التحالف الفرنسي العثماني على مسرح السياسة الدولية. فكيف نشأ هذا التحالف؟ وما هي أبعاده وإرهاصاته على الحوض الغربي للمتوسط؟

استنجد فرانسوا الأول بالجزائر

نظراً لموقع الجزائر الإستراتيجي، وقوة بحريتها النامية، التي جعلت من الجزائر القاعدة الإسلامية الكبرى، والأقوى في غرب المتوسط القادرة على مواجهة، والتصدي للمد الصليبي الإسباني، جعلت من الجزائر تدخل كطرف أساسي في الصراع الدولي، الذي دار على أشده في هذه المنطقة. وأحتد بين الخلافة العثمانية، والإمبراطورية الإسبانية، والمملكة الفرنسية، وكان من أبرز مميزات هذا الصراع، توثيق العلاقات بين الخلافة العثمانية، وفرنسا، والجزائر، واشتراكهم في محاربة شارل الخامس، ومقاومة مشاريعه العدوانية^(xxii).

وبالتالي كان من السهل على فرنسا، والخلافة العثمانية، أمام عدو مشترك المتمثل في إسبانيا أن يتوصلوا إلى اتفاق حول عمل مشترك^(xxiii)، وأن هذا التعاون لم يكن وثيقاً وثوق التعاون الذي حصل بين خير الدين، المؤسس الثاني للإيالة الجزائرية^(xxiv)، و فرانسوا الأول ملك فرنسا^(xxv)، حينما استنجد هذا الأخير بالبحرية الجزائرية، بعد أن رأى أن مملكته تتلاشى أمام طموح شارلكان التوسعية، ففي سنة 1534م، استدعى السلطان العثماني بيلرباي الجزائر خير الدين، وفي طريقه إلى الأستانة توقف بفرنسا حيث حلّ بها - خير الدين - (رئيس دولة

1227

1228

1229

1230

أنا أعرف أنّ فرنسا قد غسلت هذا العار، وهذه أحد الأسباب التي لا يجب إخفاؤها، نعم لقد رأينا خير الدين يستقبل في مرسيليا سنة 1543م استقبال الملوك، إنّ فرنسا قد خضعت لرئيس اللصوص فكان الأسطول الفرنسي تحت هذا القرصان، وكنتيجة لهذا التعاون الإجرامي دفع فرانسوا الأول 800 ألف أيكو لخير الدين، فامتألت خزائنه بذهب فرنسا، ورغم كلّ هذا أبدى خير الدين عدم رضاه على الأموال التي قدّمت له، فحمل على متن سفن أسطوله عند مغادرته إلى القسطنطينية 7 آلاف عبد ايطالي^(lxx)، لكن الجوع، والعطش، ونقص الهواء قضى عليهم وهم محتجزون في قبو السفن، فجمعهم في أكوام ورماهم في البحر...^(lxxi).

كما أبدى أحد المسؤولين في إحدى الاجتماعات الحكوميّة من استيائه من طلب فرنسا مساعدة الجزائر في عهد فرانسوا الأول قائلا: "... ويجب علينا أن نذكر للجلسة، الحملة التي قام بها خير الدين سنة 1543م، المؤسس الثاني لإيالة الجزائر، بمرسيليا بأسطول مكوّن من 150 سفينة من أجل مساعدة فرانسوا الأول، في طرد الإسبان من مدينة نيس وقد أمضى الشتاء في طولون رفقة بحارته وجيشه، وقد أظهر كرمه حينما احتل مدينة نيس وفرض عليهم الضرائب، رغم أن فرانسوا الأول كان يمنحه 50 ألف أيكو في كل شهر، ولقد استقر في بلادنا ولم ينوي الرحيل منها وصدق الملك دو سوندوفال (Sandoval) De حين قال " لقد ادخل إلى حديقته الزاهية بأشجارها وكرومها وقطوف عنبها الحيوان الأكثر توحشا وشراسة في هذا العالم." لقد كنا نخشى أن يبيع بربروس طولون للملك النمساوي، فلقد استلزم 800 ألف أوقية فرنسية من أجل إقناعه بالرحيل من أراضيها، وهذا فعلا أكثر الأشياء حزنا في تاريخ أوربا، حيث أنّ حكومة القراصنة وبكل خجل سيطرت وعلت على أمم متحضرة.^(lxxii)

لقد نست وتناست هذه التيارات الفكرية أنّ فرنسا المغلوب على أمرها في تلك الحقبة كانت تعيش الضياع والضمور أمام طموح شارل الخامس الذي كان يرى في التراب الفرنسي قطعة جغرافية تقسم إمبراطوريته إلى قسمين، لذلك يحقّ له ضمّها فهي امتداد طبيعي لمملكته.

لقد تجاهلت هذه التيارات أيضا أنّه لولا مساعدة الجزائر لفرانسوا الأول لكانت فرنسا قطعة اسبانية، لقد أظهرت هذه التيارات أنّ الصراع الفرنسي الإسباني كان على تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة فحسب، وتناست أنّ الصراع الحقيقي الذي خاضته فرنسا ضد إسبانيا كان صراع حدود ووجود، فلم تلتفت هذه التيارات لوضع ملكهم فرانسوا الأول المزري حينما كان يرى مملكته تتلاشى أمام ناظره، وعرشه ينهار أمام جبروت الملك الإسباني شارل الخامس، ولولا تدخل خير الدين والبحريّة الجزائريّة لإنقاذه في الوقت المناسب لما بقيت هناك مملكة يقال لها فرنسا في غرب أوربا، وما وجد فرنسي واحد ليتحامل على بايلرباي الجزائر.

- 1233**

(xxiv) Eugene, Plantet: correspondance des Deys D'Alger avec la cour de France 1579-1700, ministère des affaires étrangères, Paris, 1889, p LIX

(xxv) عقدت فرنسا أول معاهدة دفاعية عام 1270 على عهد الملك فيليب الثالث (1270-1285) حصلت بموجبها على الامتيازات التي كانت ممنوحة للولايات الإيطالية، وبقت سارية المفعول لمدة طويلة، وبمقتضاها استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالبحرية الجزائرية، أنظر يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ص99. أما بعض المصادر فتشير إلى أن العلاقات الجزائرية- الفرنسية بدأت منذ تأسيس إيالة الجزائر، وأن الصداقة التي جمعت بين السلطان العثماني والملك الفرنسي حتمت على الجزائر أن تكون صديقة لفرنسا، أنظر:

- أرخمند، كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، تعريب، عبد الجليل التميمي، ط2، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974م، ص 18 (xxvi) ملود قاسم، ثابت بلقاسم: المرجع السابق، ج2، ص 9.

(xxvii) عائشة، غطاس: المرجع السابق، ص5

(xxviii) كمال، حسنه: المرجع السابق، ص13.

(xxix) مع أن خير الدين شغل منصب أميرال البحرية العثمانية، إلا أنه فضل الاحتفاظ لنفسه أيضا بحكم الجزائر، بعد أن تمكن من إلحاقها بإدارته البحرية. راجع كتاب:

- نقولا، إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 - 1574، ط2، دار الفارابي، لبنان، 2004، ص 135.

(xxx) عائشة، غطاس: المرجع السابق، ص5.

(xxxi) ملود قاسم، ثابت بلقاسم: المرجع السابق، ص9.

(xxxii) يحي، بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500-1830) ...، ص 44. أنظر أيضا:

- المنور، مروش: المرجع السابق، ص95

(xxxiii) يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر ...، ج2، ص203.

(xxxiv) يحي، بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، ج2، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2009، ص8

(xxxv) كمال، حسنه: المرجع السابق، ص17

(xxxvi) احمد توفيق، المدني: حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ...، ص(256،255)

(xxxvii) عائشة، غطاس: المرجع السابق، ص6-7.

(xxxviii) كمال، حسنه: المرجع السابق، ص13.

(xxxix) نفسه، ص18.

(xl) نفسه، ص18.

(xli) عائشة، غطاس: المرجع السابق، ص8.

(xlii) Alfred, Nettement: histoire de la conquête D'Alger, le coffre fils et successeurs, 1867, p 42.

(xliii) عبد المنعم، الهاشمي: المرجع السابق، ص294.

(xliv) فيلا فرانش، هي مدينة ساحلية قريبة من نيس بحرا لكنها بعيدة عنها بحوالي ميلين عن طريق البر.

(xlv) عبد الحميد، بن اشنهو: المرجع السابق، ص176. حول تفاصيل هجمات خير الدين على الأراضي التابعة للإمبراطور شارل الخامس راجع:

- Alfred, Nettement: lbdm, p(42-43)

(xlv) L'abbe.Léon, G: Soirées Algérien et corsaire et esclaves et martyrs de barbarie, tour.amame et cie, imprimeurs- libraires M.DCCC LVII.p20.

(xlvii) ويليام، سينسر: المرجع السابق، ص169.

(xlviii) Alfred, Nettement:op.cit, p 43.

(xlix) مدينة نيس، كانت من أملاك شارل دو سافوا حليف شارل الخامس، في الحين كان يدعي فرانسوا الأول أنها ملك أجداده وبالتالي تعود إليه.

(l) Diego De Haédo: Histoire des rois d'Alger, traduite par.H.D.De Grammont, adaphe Jourdan, libraire, p 57.

(li) كمال، حسنه: المرجع السابق، ص18.

(lii) Diego De Haédo : Ibidem, p 57 .

(liii) جون، ب، وولف: الجزائر واوربا(1500-1830)، تعريب أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص63.

(liv) Alfred, Nettement:op.cit, p43.

- أنظر أيضا: جون، ب، وولف: المرجع السابق، ص57.

